الفصاحة والبلاغة

أولا: الفصاحة لغة واصطلاحا:

الفصاحة لغة: البيان والظهور؛ فصح الرجل فصاحة فهو فصيح... تقول: رجل فصيح وكلام فصيح أي بليغ، ولسان فصيح أي طلق... وفصُح الأعجمي، فصاحة: تكلم بالعربية وفُهِم عنه... يقال: أفصح الصبي في منطقه إفصاحا إذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلم... ويوم مفصح: لاغيم فيه ... وفصُح اللبن، إذا أخذت عنه الرغوة، قال نضْلة السُّلَمي:

فلم يخشَوْا مَصالتَه عليهم، وتحت الرغوة، اللبن الفصيح.

وأفصح الصبح: بدا ضوءه واستبان ... وكل واضح: مفصِح.

والفصاحة في الاصطلاح عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة، المتبادرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنها[1].

والفصاحة تقع وصفا أو يوصف بها المفرد (اللفظ أو الكلمة) والكلام والمتكلم، فيقال: لفظة فصيحة، وكلام فصيح، ورجل فصيح. أما البلاغة فيوصف بها الكلام والمتكلم فقط، فيقال: كلام بليغ، ورجل بليغ.

وتتمثل فصاحة اللفظ أو المفرد في خلوه من ثلاثة أمور: تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس[2].

1- تنافر الحروف: وهو وصف في الكلمة، ينشأ عنه ثقلها على اللسان والسمع[3]، مثل قول امرئ القيس:

---

[1] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان ، الأردن، ط1، 2007، ص43.

[2] عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د ط)، (د ت)، ص17.

[3] المرجع نفسه، ص43.

غدائره مستشزرات*إلى العلا، تضل العِقاص في مثنى** ومرسل.[1]

فالشاعر هنا يصف غزارة شعر حبيبته (ابنة عمه) فيقول: إن حبيبته لكثرة شعرها بعضه مرفوع، وبعضه مثنى، وبعضه مرسل، وبعضه معقوص ملوى بين المثنى والمرسل.

وموضع الشاهد على التنافر هنا هو لفظة "مستشزرات" بمعنى مرتفعات أو مرفوعات، فهي لفظة مستكرهة لثقلها على اللسان وعسر النطق بها. فتنافر الحروف فيها أدى إلى ثقلها وصعوبة التلفظ بها، وهذا بدوره أنقص من فصاحتها وقلل من فصاحة البيت وجماله. ولاضابط لمعرفة الثقل والصعوبة في اللفظ سوى الذوق السليم المكتسب بطول النظر في كلام البلغاء وممارسة أساليبهم[2].

فالضابط إذن لمعرفة الثقل والصعوبة هو الذوق السليم، فما عده الذوق السليم ثقيلا متعسر النطق، فهو متنافر، سواء أكان متقارب الحروف أم متباعدها، وسواء أطالت حروفه أم قصرت.

2- غرابة اللفظ (أو غرابة الاستعمال): أي أن تكون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى، ويكون ذلك لسببين:

الأول: عدم تداول الكلمة في لغة العرب الخلص، فيحتاج في بحثها إلى بحث وتنقيب في معاجم اللغة، كلفظ "جؤشوش"[3]. في قول البحتري:

فَلا وَصل إلا أن يُطيف خيَالها بنا تحت جُؤشُوشٍ من اللَّيْل أسْفَعِ[4].

---

*الثقل في كلمة مستشزرات يعزى إلى مجاورة السين للتاء مع مجاورة الشين للزاي في كلمة واحدة.

**الغدائر: الضفائر والضمير يرجع إلى فرع قبله، والاستشزار: الارتفاع، والعقاص: جمع عقيصة وهي الخصلة من الشعر، والمثنى الشعر المفتول، والمرسل: ضده. ينظر الهامش: امرؤ القيس، الديوان، حققه وبوبه وشرحه وضبط بالشكل أبياته حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت،(دط)،(دت)،ص39.

[1] امرؤ القيس، الديوان، ص39.

[2] عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، ، ص17، 18.

[3] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص 44.

[4] البحتري ، الديوان، تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصريفي، دار المعارف، مصر، ط3، (د ت)، 1237/3.

ومعناه: القطعة من الليل.

الثاني: ما يوجب حيرة السامع في فهم المعنى المقصود من الكلمة، لترددها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة[1]، كلفظ "مسرج" في قوله رؤبة بن العجاج:

ومقلة وحاجبا مزجَّجا وفاحما ومرسنا* مُسرَّجا[2].

والمعنى أن لهذه المرأة الموصوفة مقلة واسعة حسنة سوداء، وحاجبا مدققا مقوسا، وشعرا أسود فاحما، وأنفا كالسيف السريجي في دقته واستوائه، أو كالسراج في بريقه وضيائه. وشاهد الغرابة فيه هو في لفظة "مسرجا" للاختلاف في تخريجها. فاللفظة إذا دلت على أكثر من معنى، واختلف في تحديد المعنى المراد منها في موضعها فإنها تكتسب بذلك صفة الغرابة التي تنتقص من درجة فصاحتها[3].

لقد اختلف أئمة اللغة في تفسير هذه الكلمة، فقال بعضهم إن الشاعر أراد أن يشبه أنفها في الاستواء والدقة كالسيف السريجي، أي منسوبة إلى حداد يقال له سريج يجيد صنعها، وقال بعضهم هو من السراج أي المصباح، يريد أن يشبه أنفها في البريق واللمعان بالسراج[4].

3- مخالفة الوضع(مخالفة القياس): ومعناه أن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت من الواضع (أي العرف العربي الصحيح). ومثال مخالفة الواضع أي العرف العربي الصحيح والقياس الصرفي لفظ"الأجلل"[5] في قول أبي النجم:

---

[1] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص44،45.

* الزجج : دقة الحاجبين، والمرسن: الأنف.

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص23.

[3] عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، ص18.

[4] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص45.

[5] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص44.

الحمد لله العلي الأجلَلِ الواهب الفضل الوهوب المجزلِ[1].

فهو غير فصيح، لأنه مخالف لما ثبت عن الواضع، وللقياس الصرفي، إذ الوارد عن الواضع "الأجلّ" بالإدغام، لا بالفك، والقياس الصرفي يقتضي إدغام المثلين[2].

ومن ذلك لفظ "بوقات" في قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول[3].

القياس الصرفي يقتضي جمعه على أبواق؛ لأن الجمع المؤنث السالم له مواضع خاصة ليس هذا الاسم منها.

أما فصاحة الكلام أو التركيب الذي يعني سلامته بعد فصاحة مفرداته مما يبهم معناه، ويحول دون المراد منه، وقد اشترط علماء البلاغة لفصاحة الكلام أن يسلم من ثلاثة عيوب(أمور) هي[4]: ضعف التأليف، وتنافر الألفاظ (تنافر الحروف)، والتعقيد لفظيا ومعنويا مع فصاحة المفردات التي يتألف منها.

1- ضعف التأليف في الكلام:هو خروجه عن قواعد اللغة المطردة[5]؛ أي أن يكون في نظمه مخالفا للمشهور من قواعد النحو التي اعتمدها جمهور النحاة كالإتيان بالضمير متصلا بعد إلا[6] مثل قول الشاعر:

ليس إلاّك يا علي هِمام سيفه دون عرضه مسلول[7].

---

[1]أبو النجم العِجْلي، الديوان، جمعه وشرحه وحققه محمد أديب عبد الواحد جمران، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (دط)، 2006، ص337.

[2]يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص45.

[3]المتنبي، الديوان، دار الجيل، بيروت ، (دط)، (دت)،ص359.

[4]عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، ص18.

[5]عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، ص19.

[6]يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص46.

[7]أبو الطيب المتنبي، الديوان ، التبيان في شرح الديوان ، شرح أبي البقاء الكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه، مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،(دط)، (دت)، 156/4.

2- تنافر الألفاظ في الكلام: هو وصف في الكلمات مجتمعة يوجب ثقلها على اللسان، وعسر النطق بها، وإن كانت كل كلمة منها على حدة لا ثقل فيها[1]؛ وهذا يعني أن يسبب اتصال بعض ألفاظ الكلام ببعض ثقلا على السمع وصعوبة في النطق بها، لأن النطق بالحروف المتقاربة في مخارجها أشبه بالمشي المقيد[2]. مثال ذلك قول الشاعر*:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر[3].

3- التعقيد: هو أن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع فيه، وهو نوعان:

أ- **التعقيد اللفظي:** أن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد، لخلل واقع في نظمه وتركيبه، بحيث لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني، بسبب تقديم أو تأخير أو حذف، مما ينشا عنه صعوبة فهم المعنى المراد[4]، ومن ذلك قول الفرزدق الذي يضرب به المثل في تعسف اللفظ ، وهو يمدح إبراهيم المخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وَمِا مِثْلُه في الناس إلا مملَّكاً أبو أمِّه حيٌّ أبوه يقاربهُ[5].

ومعنى البيت : ليس في الناس مثل إبراهيم أحد يشبهه في الفضائل والمكارم إلا ابن أخته الخليفة. فترتيب النظم في البيت مختل، لأن أصل الكلام:

وما مثله (يعني الممدوح) في الناس حيٌّ يقاربه إلا مملكا (يعني هشام بن عبد الملك ابن أخت الممدوح) أبو أمه أبوه [6]. فالضمير في "أمه" للملك وفي " اوه" للممدوح.

---

[1] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص45.

[2] عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، ص19.

*- هذا البيت الشعري مجهول القائل، ويدعي بعض الناسبين أنه لجنيّ رثا به حرب بن أمية جد معاوية بعد أن هتف به فمات. (ينظر الهامش: أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، (د ط)، (د ت)، 109/1).

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، ط3، 2001، ص55.

[4] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص46.

[5] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص17.

[6] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية علم المعاني- علم البيان- علم البديع، ص46.